Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

نسبية السليقة النحوية والبلاغية

The relativity of grammatical and rhetorical soundness

محمدي مختار mohammedi mokhtar
طالب دكتوراه علوم، جامعة الدكتور مولاي الطاهر- سعيدة،
كلية الآداب واللغات والفنون. قسم اللغة والأدب العربي،
mohammedi.mokhtar@univ-saida.dz

تاريخ الاستلام: 13 – 11 – 2023 تاريخ القبول : 06 – 04 - 2024

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى المقاربة بين تحقيق السليقة اللغوية في ظل إشكالية تطبيق الدرس النحوي والبلاغي التي يتلقاه الطالب، بحيث لا يمكن تطبيقها في زمن الأداء بل يقتصر المتحدث على استرساله في الكلام حتى يصير له أسلوب خاص تواضع له به لسانه، فلا يحتاج حينئذ إلى تلك القواعد أو النظريات إلا عند قراءته للنصوص المدونة .

وعليه، فإن السليقة اللغوية التي تحدث عنها الأولون تكاد تكون نسبية لا يسعها الدرس النحوي ولا البلاغي.

الكلمات المفتاحية: النسبية؛ التطبيق؛ النحو ؛ البلاغة ؛ السليقة .

Abstract:

This article aims to approach the achievement of linguistic correctness in light of the problem of applying the grammatical and rhetorical lesson that the student receives, as it cannot be applied during the time of performance. Rather, the speaker is limited to his continuation in speaking until he has a special style that humbles his tongue, and then he does not need those rules. Or theories, except when reading written texts.
Accordingly, the linguistic decency that the ancients spoke about is almost relative and cannot be covered by either grammatical or rhetorical study.

Keywords: Relativity; Grammatical; rhetorical; Syntax; The melody; Mental perception.

مقدمة:

- بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

لـــــقد كانت العرب مشهورة بالبيان وفصاحة القول منذ العهد الأول الذي أعطى للخطيب مكانة رفيعة والشاعر، فلما ظهر اللحن في كلام العرب نتيجة الفتوحات الإسلامية بدخول الأعاجم في دين الله أفواجا، اضطر أهل الاختصاص من النحو و البلاغة أن يؤلفوا كتبا ورسائل في هذا الشأن قصد إفهام الناس كلام الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وكلام العرب فهما صحيحا وكذلك توجيهم إلى النطق الموافق للمعنى والسليم من اللحن والذي وقع فيه كثير من الناس - لاسيما- الأعاجم منهم، لكن المشكلة تكمن في الثانية، إذ أنّ المتعلم بالرغم من علمه بالمسائل النحوية والبلاغية التي تضبط اللسان وتبلّغه المراد والتي تمّ جمعها وحفظها من التنظير المكتسب إلا أنه قد لا يفيده كثير مما اطلع عليه من المراجع سواء في الجانب النحوي، مثل: التقديم والتأخير والاشتغال والتنازع والتقديرات النحوية التي أثقلت كاهل العاكف على هذا الفن والتي لم تسلّمه من اللحن. وهل صاحب السليقة النحوية سالم هو الآخر من اللحن - كما يظن أغلب الناس- أم كذلك هو يعتريه اللحن؟ أمّا في الجانب البلاغي، فقد نجد بعض المسائل التي لا تفيد المتكلم في شيء أو بالأحرى لا يستعملها في حديثه قط إلا ما تعوّد لسانه على أسلوب خاص به، وذلك للتصور الذهني الذي فرض عليه لغة بسيطة يتواصل بها مع غيره خالية من تلك النظريات البلاغية التي صارت كسراب يحسبه الظمآن ماءا. ومن تلكم المسائل: الفصل والوصل وبعض التقسيمات الرياضية التي نجدها في علم البديع التي تخدم المعنى كالاستخدام ومراعاة النظير ... فجلّ ما تراكم من النظريات النحوية والبلاغية في ذهن المتكلم أصبحت أضغاث أحلام لا تبلّغ القاصد من دراستها في التطبيق النحوي والبلاغي.

وعليه نطرح الإشكالية التي ينبني عليه مقالنا، هل النحو التطبيقي عملية ذهنية بين استحضار النظرية النحوية وزمن الأداء (التكلم) أم هو حالة فيزيولوجية ترتاح لها النفس عند الأداء ؟ وكذلك نفس الطرح في الجانب البلاغي.

وعليه فهدفنا في هذا البحث هو تعذر استعمال الدرس النحوي والبلاغي في عملية الأداء، ومن ثم يبقى الدرس النحوي والبلاغي متعلق بالسليقة التي تنشأ في بيئة لغوية، كما نشير إلى أننا اعتمدنا في بحثنا هذا على المنهج التحليلي الذي يقارب بين النظرية والتطبيق، المبني على محورين أساسين، كلّا يتفرع منه عناوين، وهما:إشكالية تطبيق الدرس النحوي في مقابل السليقة النحوية،وإشكالية تطبيق الدرس البلاغي في مقابل التصور الذهني.

المحور الأول: إشكالية تطبيق الدرس النحوي في مقابل السليقة النحوية

أمّا إذا أردنا الحديث عن هذا الطرح، فأوّل ما نتحدث عنه، هو أنّ أعلى مستويات الناطق باللغة العربية هو صاحب السليقة النحوية الذي قد يندر في زماننا، فكلامه مسترسل وليس فيه لحن. وحتى يصل المتحدث إلى السليقة، لابد له من مراحل يعبرها ليبلغ المستوى الذي يقول فيه أحدهم[1] :

وَلَسْتُ بِنَحْوِيّ يَلُوكُ لِسَانَهُ... وَلكِنْ سَلِيقِيٌّ أقولُ فأُعربُ

فأوّل مرحلة لابد لكل واحد منّا أن يمرّ عليها هي التحدث بالعامية المخلوطة بالعربية. وهذه أدنى المستويات للناطق بلغة الضاد ثم ثاني مرحلة، وهي التحدث بلغة عربية مشوبة باللحن الجلي والخفي معا ثم يليها ، التحدث بلغة عربية سليمة من اللحن الجلي دون الخفي .

وأخيرا، السليمة من كليهما.فأمّا الأول والثاني والثالث فقد يأتي يوم وقد تحوّل اكتسابهم الذي تعودّوا عليه بنطقهم المستمر إلى سليقة نحوية وهذا بعد نسج أسلوبهم أو تركيبهم اللغوي الخاص بهم، وهذا بعد توافق الحالة الإعرابية والمعنى في زمن الأداء ، هذا إن سلمنا أنّ صاحب السليقة النحوية - أعني به الأخير - لا يقع في اللحن . إذًا، فالمتعيّن في هذه الإشكالية – في نظري– هو فوات استحضار القاعدة النحوية واستعمالها في زمن الأداء مما يؤدي بالثلاثة إلى وقوعهم في اللحن مع افتراضية أنهم بلغوا من العلم النظري مبلغا، ولكن في حقيقة الأمر أنّ المتكلم لابد له من عمل ذهني لاستحضار القاعدة متزامنا مع كلامه، وإلا أصابه اللحن في حال عدم استحضاره للقاعدة ولو كان ضابطا للقواعد النحوية، وحينئذ لم يكن سليقيا في حال عدم استرساله في الكلام. وعليه أصبح لدينا مثلثا متناسقا لفهم السليقة النحوية.

أولا- مثلث السليقة النحوية ويتكون من:

الحالة الإعرابية .

المعنى الموافق للحالة الإعرابية .

الأداء المسترسل أو عملية النطق في زمن الموافقة بين الحالة الإعرابية والمعنى المراد لها .

وأعني بالحالة الإعرابية : الكلمة التي تحتمل توجها واحدا ، وحينئذ تكون لها حركة واحدة لا أكثر، وأمّا التي تحتمل توجهات عديدة توافق المعنى المناسب للحركة الإعرابية، فقد تكون لها حركة واحدة أو أكثر على حسب محل تأويلها في الكلام كما هو معلوم في كتب التوجهات النحوية لآي القرآن. فمثال الأول : كزيد خرج . فزيد لا يحتمل إلا أن يكون مبتدأ ، وبالضرورة النحوية أن يكون مرفوعا باتفاق . أمّا المثال الثاني: قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة : 185 فارتفاع " شهر" على أنه مبتدأ و خبره ﴿ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ أو على أنه بدل من الصيام في قوله﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ البقرة: 183 . أو على أنه خبر مبتدأ محذوف[2] . وهذا ما ذكرناه في قولنا " فقد تكون لها حركة واحدة " مع التوجهات المتعددة. وقد تحتمل أكثر من حركة لأنه قرئ بالنصب على: صوموا شهر رمضان أو على الإبدال من ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أو على أنه مفعول ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[3] . وفي كذلك قوله تعالى:﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ يس: 39. فنصب" القمر" بمقدر يفسره المذكور أي: قدرنا القمرَ، وقرأ " والقمر" بالرفع . قال غير واحدٍ على الابتداء وجملة " قدرناه" خبره . قال الزمخشري : قرئ " والقمر" رفعا على الإبتداء أو عطفا على الليل، يريد : ومن آياته القمر. ونصبا بفعل يفسره قدرناه "[4]. فكلمة "القمر"على قراءة النصب منصوبة على الاشتغال بفعل يفسره " قدرناه" ، وعلى قراءة الرفع قطع عن العامل المقدر فجاء " القمر "مبتدأ "و" قدرناه "الخبر. والفرق في الإعراب بين القراءتين واضح . وغيرها كثير. ونحن نتحدث عن الحالة الإعرابية التي تحتمل حركة واحدة، فما بال المتكلم إذا وقع كلامه فيما ذكرناه من وجوه عدة للحركة الإعرابية ؟ فتوجيه الحالة الإعرابية من حركة إلى حركة يتطلب استحضار المعنى، ولا يمكن للمتكلم أن يوافق استحضاره لهذه المعاني المتعلقة بالحركة الإعرابية في وقت الأداء، اللهمّ إلاّ إذا كان المتكلم لا ينفك أن يقع في أحد أمرين : إمّا أن يكون مسترسلا في كلامه - سواء أصاب الحالة الإعرابية أم لا- ولا يوافق – عندئذ- كلامه معناه الذي أراده ، وإمّا أن يكون كلامه غير مسترسلا حتى يعي ما يتكلم به . ولا يكون هذا الأخير سلبقيا لفقد شرط الاسترسال على حسب المثلث السليقي الذي ذكرناه آنفا، وعليه يمكن أن نطرح إشكالية تفيد . أ كان للعرب الخلّص أن يستحضروا كل الحركات الإعرابية الموافقة للمعنى التي يريدونها دون وقوعهم في الخطأ - لاسيّما -إن كانوا ناطقين بالشعر ارتجالا مسترسلين بين ثلاثية الإعراب والمعنى في زمن الأداء ؟

ثانيا- نسبية السليقة النحوية:

إذا كانت السليقة النحوية هي عملية ذهنية سريعة لتوافق الحالة الإعرابية مع المعنى المَعرب أو هي حالة فيزيولوجية ترتاح لها النفس عند الموافقة فيتهيأ المرء لذلك فستقيم لسانه على الكلام العربي – كما يقولون - ويسهل عليه تأليفه من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن دون أن ينظّر لذلك ، فهو بذلك لا يستحضر القاعدة النحوية لاعتياده على الكلام العربي ، فتراه يسترسل في كلامه أو بالأحرى في شعره دون مشقة أو يتكلم بطلاقة وفق ما يريده من إظهار المعاني المكنونة في صدره الموافقة للحركة الإعرابية التي نصت عليها القواعد النحوية.

المشكل المطروح هو كيف يتسنى له السلامة من الخطأ مع أن هناك تقديم و تأخير وتقدير ... بالرغم من قصر الزمن الذي يستحضر فيه المتكلم بين ثنائية الحالة الإعرابية والمعنى المراد؟

فإذا كان هذا إشكالا، فمن باب أولى أن يكون الإشكال المتعيّن على صاحب السليقة الذي لم يسلم هو الآخر من اللحن . والذي يؤيد أنّ السليقة النحوية نسبية عند المتكلم هو ثبوت اللحن في الزمن الأول ، فقد وردت أخبار تشير إلى ذلك، فمن ذلكم قصة الأعرابي لما قدم أعرابي في زمان عمر فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد ؟ فأقرأه رجل " براءة "، فقال ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ﴾ بالجر، فقال الأعرابي: أوَ قد برئ الله من رسوله ؟! إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه . فبلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال: يا أعرابي ، أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال : يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت: من يقرئني؟ فـأقرأني هذا سورة "براءة "، فقال أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فقلت : إوْ قد بريء الله من رسوله ، إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ﴾ فقال الأعرابي : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ...."[5]. وما

ذكره الجاحظ في" البيان والتبيين" إذ قال: " ولأهل المدينة ألسن ذلقة ، وألفاظ حسنة وعبارة جيدة ، واللحن في عوامّهم فاش ، وعلى من ينظر في النحو غالب "[6]. نستفيد من كلام الجاحظ فائدتين: أولاها : الشاهد من كلامه " اللحن في عوامّهم فاش ". فإذا كان اللحن منتشر في عوامّهم فهذا دليل على أنّ المتحدث باللغة العربية ولو كان في زمن يقّل كلامهم بالعامية إلا أنّ المعتاد على اللغة نطقا قد يلحن ، ثم قد يقول قائل: ليس المراد من عوامّهم الذين استقامت ألسانهم على السليقة . نجيب عنه ، بأنّ العاميّ مادام قد نشأ في بيئة عربية فمن اللازم أن يستقم لسانه وقد يكون سليقيا، وهذا ما ذكره ممن ذهب بالقول الثاني الذي يقرر بأنّ السليقة أداء لغوي مكتسب وليس بإلهام أو وراثة، وبذلك يقول ابن خلدون: " اعلم أن اللغات كلها ملكات ، شبيهة بالصناعة ، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها، بحسب تمام الملكة أو نقصانها .. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أي صفة راسخة "[7]. إذاً، ما حقيقة السليقة النحوية التي تكلم عنها الأولون والآخرون في مقابل ثبوت اللحن في الزمن الأول ؟ وأمّا ثانيها : الشاهد من قوله : " وعلى من ينظر في النحو غالب ". فإذا غلب على أهل القرون الأولى النظر في النحو، فعندها نستطيع القول بأنّ النحو ليس هو الوسيلة الوحيدة لصون اللسان . ولعل السبب في ذلك هو مخالطة ألسنتهم بالعجمة ففسد اللسان عن ذلك اللسان الأصلي. وعنها يقول ابن خلدون: "... ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم و مخالطتهم حتى تأدى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضعه ميلا مع هجنة المستعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية .."[8]و خصوصا أهل المغرب وما يجاورها من الدول المستعمرة، فقال "... فأهل إفريقية والمغرب لمّا كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم "[9].

فيستفاد من كلامه أنّه حتى ولو حصل التعلّم لكان اللسان قاصرا عن الملكة اللغوية الأولى لغلبة العجمة على ألسنتهم فنظروا في النحو سواء في القرون الأولى أو ما صرّح به ابن خلدون في عصره ، ولعلّ السبب في ذلك- أيضا -هو استرسال المتكلم في حديثه يوجب الوقوع في اللحن سواء كان هذا اللحن خفيا أو جليا وذلك لعدم استحضار القاعدة النحوية في زمن الأداء. ثم كيف للسليقة النحوية التي لا تخطئ صاحبها في بيان التوجيه النحوي الموافق للحركة الإعرابية دون أن يقع السليقي في اللحن - لا سيما - إن قال الشعر ارتجالا مع العلم أنّ الشعر هو تلك اللغة الراقية التي لا يتحدث بها أهلها إلاّ في مجالسهم الخاصة لما فيها من موسيقى داخلية و خارجية لا بد أن يتقيّد بها صاحبها ناهيكم عن التقديم والتأخير والحذف والتقدير ... عند الأداء وقد تكون حالة إعرابية تحتمل عدة توجيهات ، فكيف يمكن للمتكلم أن يستحضر ما يحتمل غير وجه ؟. في مقابل ما علمناه من المزاحمة القوية لتلك النظريات النحوية التي لابد أن يستحضرها السليقي دون مشقة ؟ . هذا إن سلمنا أن المقصود بالنحو هو ذاك العلم الذي يهتم بحركات أواخر الكلم غير الذي ذهب إليه ابن جني لمّا قال:" هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره ، كالتثنية و الجمع و التحقير والتكسير ...."[10]فهو قد جمع بين النّحو والصرف معا ، فلا يكفي في ضبط اللسان العلم بأحوال أواخر الكلم بل لابد من معرفة لوازمه من صرف و بلاغة ومعاني الكلمة حقيقة و مجازا .

وفي هذا المقام يوجه ابن خلدون كلمة مهمة لمن ظن أن معرفة القاعدة النحوية هي الغاية في تعلم النحو إذ يقول : "... وتلك القوانين، إنما هي وسائل للتعليم، لكنهم أجروها على غير ما قُصد بها، وأصاروها علما بحتا، وبعدوا عن ثمرتها "[11]فالمفهوم من كلام ابن خلدون أن النحو ليس غاية لذاته إنما هو وسيلة تواصلية لإظهار المعاني لا تلك التأويلات النحوية وضرب الأمثلة لها التي لا يمكن تطبيقه في وقت الأداء لصعوبة الإنسجام بين استحضار الحالة الإعرابية و تطبيقها في زمن النطق المسترسل . لذا قال: " .. فإن العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل "[12].فلو كان مسترسلا لما فكّر، مع كونه قد يكون ضابطا للإعراب ، كما أنّ الحديث باللغة العربية – في زماننا– متعذر إلا إذا كان المتكلم يجلس على مقعد يؤهله إلى الحديث بها ، وبه يقول ابن خلدون: " وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب و تكرره على السمع و التفطن لخواص تراكيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان "[13] أمّن كان يحفظ الخلاصة

النحوية لابن مالك هو ذاك النحوي ، وهو لا يكاد أن يتم فقرة إن لم نقل جملة دون أن يقع في اللحن، أم هو الأسلوب الخاص بكل واحد منّا ، والذي يفرض علينا منوالا نتكلم به ، وحينئذ تصبح تلك النظريات مجرد أضغاث أحلام لا يمكن تطبيقه في وقت الأداء ؟ وبه نخلص أن السليقة النحوية، وإن كانت نسبية يقع فيها حتى السليقي، وإن ندر خطؤه .

ثالثا- مؤهلات السليقة النحوية:

قد تتحقق بأسباب، منها:

- تعلم الدرس النحوي ومعرفة قوانينه التي توجب صون اللسان دون الخوض إلى حشوه.
- الإستماع لكلام العرب الذي حل محل عامل البيئة، كون زماننا قد تعذر فيه الكلام العربي الأصيل.
- التوفيق بين أسلوبك الذهني الذي تأثر بعامل البيئة، وبين ما تلقيته من كلام العرب سماعا .
– ممارسة ذلك وتطبيقه، وإن كان هذا متعذر في زماننا.

المحور الثاني: إشكالية تطبيق الدرس البلاغي في مقابل التصور الذهني:

أولا- حقيقة البلاغة بين النظرية والتطبيق:

فبيان المعنى منوط باللفظ المستعمل لفئة من الناس ، لا أن يتحدث المرء بأسلوبه الذي اعتاده، وإلا فلا يكون بليغا، ثم إذا نظرنا إلى ما يريد أن يعبّر به المتكلم من مكنونات يصعب عليه صياغة أسلوب يوافق المعنى المكنون ولو كان لا يلحن في كلامه فيكون تعبيره خاضعا لتصوره الذهني، بمعنى أنه لا يعبّر بما يريد إلا بما فرضه أسلوبه الناشئ معه دون أن يتعرّض إلى تلك الدروس البلاغية إلاّ قليل، بحيث قد يحذف كثيرا مما حفظه من البلاغة النظرية ليستقر في نهاية الأمر على أسلوبه الخاص الذي يتميز به كل واحد عن غيره دون أن يخوض في الكثير مما أخذه من علم المعاني، كالغرض من الخبر(فائدة الخبر ولازم الفائدة) والذكر والحذف والتقديم والتأخير والفصل والوصل و الإيجاز والإطناب ومن علم البديع الذي بات معلقا في كتب البلاغة لا يستعمله أحدنا في حديثنا إلا قليلا كالتورية والكناية ... فلا يظن أحد أننا نقلّل من شأن البلاغة أو نزهّد فيها، إنما هو واقعنا اللغوي الذي يشهد له من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وإذا ما أراد المبلّغ أن يقتفي أثر الأولين في طريقة بلاغتهم التي وافقت خيالهم أو تفكيرهم - آنذاك - فيقع حينئذ الخلل في التبليغ ، وإن اقتصر على ما فرض عليه أسلوبه الموافق لتصوره الذهني والذي فرض عليه هذا الأخير تركيبة لغوية معينة وافقت لغة المتلقي– في الغالب - حكمنا عليه بضعف بلاغته بالرغم من أنه أوصل المعنى المطلوب للمتلقي وهذا هو الشرط الأساسي في العملية التواصلية بين المتكلم والمتلقي بل هي البلاغة بمفهومها الإصطلاحي، لأن بعض البلاغيين لم يشترطوا الجودة في الأسلوب حتى تكون بليغا بل أنكروا على من كان همّه التحسين اللفظي، والأصل في الكلام أن يأتي مطبوعا على السجية المفيد بالمعنى كما قال ابن خلدون[14]، لكن المشكل أننا نريد أن نتبع طريقة الأولين في كلامهم مع العقبة التي نجدها في تصوراتنا للأشياء – لاسيما – إذا أراد المتكلم أن يبرع بحديث نكتة استقرت في ذهنه قد تحدّث عنها الأوّلون في كتبهم– مثلا - فتراه أبلغ أو أبرع إذا أسردها بأسلوبه الخاص أو بالأحرى بالعامية ولا تراه بليغا أو بارعا إذا أسردها بالعربية ، ذلك أن التعبير الذي كان قديما، كان موافقا لخيالهم ، أمّا في عصرنا هذا الذي تغيرت فيه الأمور وانقلبت فيه الأوضاع واستجدت فيه المستجدات جعلت المتكلم لا يتبّع طريقة الأولين في الكلام ، نظرا لحدوث تزاحم بين طريقة التعبير عند الأولين و خياله أو تصوره الذهني . وبه قال ابن خلدون: " .. ثم إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم . وسبب فسادها أنّ الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبّر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم و يسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحد ملكة و كانت ناقصة عن الأولى . وهذا معنى فساد اللسان العربي "[15] . ولنوضح الصورة أكثر عندما نقارن بين صاحب البادية وبين الحضري في منوال الكلام الذي يؤلفه كل واحد منهما نجد اختلافا بيّنا، حيث إن الأول اقتضت بيئته أن تؤثر على تصوارته للأشياء مما جعلت تؤثر على طريقة عرضه في الكلام ، غير الذي نجده متحضّرا فهذه من المشاكل التي يواجهها الناطق بالعربية مما يدل على صعوبة الإنسجام بين ما الذي يفرض عليه أسلوبا معينا وفق البيئة التي يعيش فيها . فلا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نفرض على شخص اتباع طريقة الأولين في التعبير مع ما استقر في ذهنه من تعبير فرضه عليه تصوره الذهني فإذا استقرت التراكيب اللغوية التي عبّر بها الأولون في ذهن المتكلم وانسجمت معه، فبها ونعمت،لأن لغة الأولين هي الأفصح، بشرط أن تكون مفهومة لدى المخاطَب و إلا ينطبق عليه قول

نبينا – صلوات ربي وسلامه عليه – " بئس الخطيب أنت "[16].
وإذا كان الأسلوب له علاقة بالتصور الذهني فلا يستطيع حينئذ المتكلم بالعربية أن يبلغ تلك الفصاحة التي تحدّث بها الأولون إلاّ بما يصوّر له ذهنه من التراكيب اللغوية و المتأثر هذا الأخير بعامل البيئة، وعندها نحكم على ما تكلم به الأولون من لغة راقية كانت تحت تأثير بيئتهم، فلغة البادية عندهم ليست كلغة الحضر، فالأخيرة أسهل. أمّا إذا أراد العاكف على البلاغة تعلما لأجل فهم كلام الله و رسوله – صلى الله عليه و سلم – و كلام العرب ، قلنا له هذا من الواجب ولا نلزمه بتأدية الدرس البلاغي في كلامه – لاسيما – الحشو منها، فهذا مما لا ينبغي وإن حصل المطلوب فهو أكمل.

وقولي " لا نلزم المتكلم بتأدية الدرس البلاغي في كلامه " يعني أنه لو وجد الحديث بالعامية أبلغ في إيصال المعنى لدى المخاطَب لكان أولى، لأن البلاغة تتم بالإشارة أو بغيرها، كما سنذكره على النحو التالي:

ثانيا- وسائل التواصل البلاغي:

إذا أردنا أن نتكلم عن البلاغة بمفهومها العام، فهي تبليغ المعنى المراد إلى المخاطب وإفهامه له بوسائل تواصلية تقتضيها الحال والمقام ، ومن تلكم الوسائل :

1- وسيلة اللفظ: سواء يكون اللفظ مفهوما أو مرموزا

فإذا كان مفهوما، فهو الأولى،لأن المبلّغ إذا كان يريد أن يستعمل اللغة كوسيلة تواصلية لتبليغ المخاطَب فلابد أن يكون فصيحا . حتى إنّ الفصاحة هي اختيار الألفاظ الواضحة التي يفهمها المخاطب مراعيا مقتضى حال المخاطب- لا سيما- إذا كان المبلّغ في مجال الدعوة فنبينا – صلوات ربنا وسلامه عليه – خاطب قومه بلغتهم التي كانت أفصح العرب ، كما ذكره غير واحد. وكما قرره ابن خلدون في المقدمة إذ قال: " ولهذا كانت لغة قريش، أفصح اللغات وأصرحها ؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف، وهذيل، وخزاعة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم "[17]. في مقابل فصاحة نبينا– صلى الله عليه وسلم- الذي أُعطي جوامع الكلم وعليه طلب موسى– عليه الصلاة والسلام– من ربه أن يحلَّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله. قال الله تعالى ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ طه : 127. فحلّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي كما قال الحسن البصري[18] ثم أردف معه أخاه هارون لأنه أفصح منه كلاما.قال تعالى ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص : 34 .

وقال السعدي: " إنَّ الفَصاحة والبَيَان مما يعين على التّعليم، وعلى إقامة الدّعوة، لهذا طلب موسى من ربّه أن يحلّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأنّ اللُّثْغة[19]لا عيب فيها إذا حصل الفهم للكلام- كما قال ابن خلدون "[20] .

أو يكون اللفظ مرموزا ، فمن الجديد الذي طرأ في شعرنا العربي الحديث والذي أصبح وسيلة إبلاغ و إبداع عند الشعراء المحدثين باستعمالهم الألفاظ التي لها دلالتها المتعلقة بالتاريخ أو الدين أو السياسية أو غيرها والمشهورة بين الناس ... فيوظفها لتدل على معنى يوافق صورته الشعرية[21] قصد الاختصار وتقوية المعنى أو ليتعلّق المتلقي بالمعنى التي تحمله تلك الرموز فيتعلّق بالقصيدة. كتوظيف لفظة أيوب - عليه الصلاة و السلام – رمزا للصبر، والأوراس رمزا للتحدي ، والمقاومة ، والزيتون رمزا للسلام والأصالة . والفجر رمزا للاستقلال ... وهكذا.

2- بالعلامة : سواء كانت بالإشارة أو بالإيماء :

لقوله تعالى﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ مريم:11.

أو بالملامح الخَلقية كالنظرة الغاضبة - فمثلا - عن أبي سعيد الخدري قال: " كان النبي- صلى الله عليه وسلم - أشدّ حياء من العذراءِ في خدرها[22]، فإذا رأى شيئا يكرهه، عرفناه فيوجهه "[23]لذا تطلّبت بلاغتنا – في زمننا – اختيار اللفظ السهل حتى يوصل المتكلم الفكرة التي يريد تبليغها على الوجه الكامل، وقد قال الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ إبراهيم :04.

خاتمة:

لو تأملنا في كلامنا الناطق بالعربية لوجدنا أنّ عامة التأويلات والتقديرات التي ضُربت لها الأمثال في الدرس النحوي لا تطبّق في وقت الأداء لأن السر في ذلك هو الأسلوب الذي فرض قوته على ألسنتنا، وإذا كان كذلك فالنحو ليس هو المسلّم من اللحن وإنما الفطرة التي يمنّها الله تعالى على المرء فيستقيم لسانه من غير التأمل في النظريات، إلا أنّ النحو النظري قد يساعد نسبيا في ضبط اللسان ولا يحيلك إلى السليقة المرجوة قطّ ، ودليل ذلك، كمن يُمتحن من ذوي الإختصاص ، فقد يتأنى في تقرير الإجابة عن السؤال بالرغم

من حفظه للمتون وشرحها مما يستدعي أن نقول أنّ المقصود ليس هو ذاك الإعراب الآلي الذي يحفظه المرء ليستقيم لسانه بل المُتعيّن هو تطبيقه حتى يسترسل في كلامه و لا يتأنى ليجد الحركة المناسبة فتفوته السليقة، هذا إن لم يُلحن في كلامه ، في مقابل ذلك نجد أنّ السليقي دليله النحوي هي حاله النفسية التي ترتاح للحركة الإعرابية أثناء الأداء، وذلك لاعتياده على الكلام العربي أولا، كمثل قوله : مررت بزيد . فإذا رفع " زيد " أو نصبه يجد في نفسه حرج و إذا جره ارتاحت نفسه أو كثرة سماعه من غيره ثانيا، وهكذا... كما أنّ السليقة النحوية أمر نسبي لدى المتحدث بالعربية إن سلمنا بحقيقتها كما علمنا - آنفا -

أمّا في الجانب البلاغي فالشيء نفسه إذ أنّ غالب النظريات البلاغية لا تطبّق في وقت الأداء لأنّ المصيطر على ذلك هو التصور الذهني الذي يحدد لكل شخص أسلوبه الخاص أو طريقته الخاصة في تبليغ المعاني التي يريدها، وعليه فلا يبقى من حفظ المتون وضبط المسائل البلاغية إلا ما تقرر في ذهنك من التعبير البسيط الذي يخلو من تلك التقديرات والتأويلات التي تضمّنتها الكتب المطولة لتجد كلامك في منتهى طلبك مثل كلام غيرك من عامة الناس.

وفي الختام إذا قُورن النحو مع البلاغة في منظور الجمع بينهما لتأدية المعنى المطلوب ، فلاشك أنّ الأولى هو الجمع ، لكن إذا زاحم أحدهما الآخر ، فالدلالة على المعنى المقصود هو المتعيّن و لا مدخل للإعراب في البلاغة كما قال ابن خلدون : " ... وإلاّ فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود و لمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل و النصب دالا على المفعول أو بالعكس ، وإنما يدل على قرائن الكلام ... فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عُرف اصطلاح في ملكة و اشتهر صحة الدلالة و إذا طابقت عليه تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك "[24]. نخلص أنّ المتكلم إذا اضطر إلى الحديث بالعامية لإيصال المعنى على أحسن صورة فله ذلك على حسب ما جاء من دلالة المفهوم من كلام ابن خلدون . والله أعلم وأسأل الله تعالى يلهمني الرشد والصواب ويجعلني ممن أصاب الحق، والله الموفق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

. قائمة المراجع:

القرآن الكريم

- **الكتب:**

1. أبو الفضل جمال الدين ابن منظور- لسان العرب- تحق : عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي – دار المعارف – القاهرة ، 1119هـ
2. أبو القاسم الزمخشري – الكشاف – تحق: الشيخ عادل أحمد عبد الودود والشيخ علي محمد معوّض – مكتبة العبيكان – الرياض ، طريق فهد – الطبعة الأولى (1418هـ / 1998 م) .
3. أبو الفتح عثمان بن جني- الخصائص – تحق : محمد علي النجار- دار الكتب المصرية.
4. ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - " تاريخ ابن خلدون " تحق : خليل شحادة وسهيل زكار – دار الفكر – بيروت – 1421/ 2001
5. أبو البركات كمال الدين ابن الأنباري - نزهة الألباء – تحق : إبراهيم السامرائي – مكتبة المنار – الأردن – الطبعة الثالثة (1405 هـ/ 1975م).
6. -6أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين – تحق : عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة السابعة (1418 هـ / 1998م).
7. أبو الفداء إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم - تحق : سامي بن محمد السلامة – دار طيبة – الرياض – الطبعة الثانية (1420 هـ / 1999م).
8. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري- صحيح البخاري– دار ابن كثير(دمشق– بيروت)، ط1 (1463هـ/ 2002 م).
9. أبو الحسين مسلم – صحيح مسلم – تحق: نظر محمد الفريابي- دار طيبة – الرياض– ط1 (1427هـ / 2006 م).
10. صبحي البستاني - الصورة الشعرية في الكتابة الفنية -دار الفكر اللبناني للفكر و الطباعة و النشر ، الطبعة الأولى ، 1986 .

11. عبد الرحمن بن ناصر السعدي- تفسير اللطيف المنان
– وزارة الشؤون الإسلامية للمملكة العربية السعودية –
الرياض– الطبعة الأولى (1422هـ / 2001م) .

الهوامش

[1]- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور- لسان العرب- تحق : عبد الله علي الكبير و محمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي – دار المعارف – القاهرة . ص : 2071، مادة (سلق) .

[2]- أبو القاسم الزمخشري – الكشاف – تحق: الشيخ عادل أحمد عبد الودود والشيخ علي محمد معوّض – مكتبة العبيكان – الرياض ، طريق فهد – الطبعة الأولى .ج1 / 383 .

[3]- نفس المصدر : ج1 / 383 .

[4]- نفس المصدر : ج5 / 178 .

[5]- أبو البركات كمال الدين ابن الأنباري - نزهة الألباء – تحق : إبراهيم السامرائي – مكتبة المنار – الأردن – الطبعة الثالثة. ص: 19- 20 .

[6]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين – تحق : عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة السابعة.ج1 / 146 .

[7]- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون - " تاريخ ابن خلدون " تحق : خليل شحادة وسهيل زكار – دار الفكر – بيروت – ج1 / 764- 765

[8]- نفس المصدر : فصل قي علم اللغة . ج1 / 756

[9]- نفس المصدر: فصل في أنّ أهل الأمصار على الإطلاق قاصرون... ج778/1 .

[10]- أبو الفتح عثمان بن جني- الخصائص – تحق : محمد علي النجار- دار الكتب المصرية. باب القول على النحو.ج1 / 34

[11]- ينظر: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون – المرجع السابق – فصل في أنّ ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية... ج1 / 774.

[12]- نفس المصدر: فصل في ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية . ج1 /773.

[13]- نفس المصدر: فصل في تفسير الذوق . ج1 /775.

[14]- نفس المصدر: فصل في أن اللغة ملكة صناعية . ج1 /765.

[15]- أبو الفداء إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم - تحق : سامي بن محمد السلامة – دار طيبة – الرياض – الطبعة الثانية. ج 5 / 282 .

[16]- اللثغة : العدول من حرف إلى حرف، والألثغ هو الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء. ينظر: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور- المرجع السابق. ص 3995 ، مادة (لثغ) .

[17]- ينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي- تفسير اللطيف المنان – وزارة الشؤون الإسلامية للمملكة العربية السعودية – الرياض– الطبعة الأولى. ج1/ 235 .

[18]- الصورة الشعرية : هي تركيب لغوي يمكّن للشاعر تصوير معنى عقلي أو عاطفي باللفظ الذي يراه مناسبا ليكون المعنى متجليا أمام المتلقي . ينظر: صبحي البستاني " الصورة الشعرية في الكتابة الفنية " الطبعة الأولى- دار الفكر اللبناني -. ص: 25 .

[19]- الخدر : ستر يمد الجارية في ناحية البيت .... أبو الفضل جمال الدين ابن منظور- المرجع السابق .ص 1109 ، مادة (خدر) .

[20]- ينظر: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري- صحيح البخاري– دار ابن كثير(دمشق– بيروت)، " كتاب الأدب ، باب من لم يواجه بالعتاب برقم :6102.

[21]- ينظر: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون – المرجع السابق – فصل في بيان المطبوع من الكلام و المصنوع ...ج1/ 800 ، بتصرف .

[22]- نفس المصدر " فصل في أنّ اللغة ملكة صناعية . ج1 / 765 .

[23]- ينظر: أبو الحسين مسلم – صحيح مسلم – تحق: نظر محمد الفريابي- دار طيبة – الرياض– ط1 . ج1 / رقم الحديث : 870 ، كتاب الجمعة

[24]- ينظر ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون – المرجع السابق: فصل في أشعار العرب ... ج1 /806 .